الخاتمة

مع انتهائي من هذا الكتاب، كانت الأزمة السورية مستمرة لعامها السابع، وقد تورط في أحداثها مسؤولون إقليميون وعالميون رفيعو المستوى.

فما هي الأهداف التي وضعتها روسيا لنفسها عندما قررت التدخل العسكري في سوريا؟ كان الهدف الأساسي مزدوجًا، وهو إضعاف التنظيمات المتطرفة والإرهابية التابعة مثل "**داعش**" و"**النصرة**" وحلفائهما، وفي الوقت نفسه دعم أو بالأحرى إنقاذ الحكومة الشرعية في سوريا. كما هدفت روسيا في ذات الوقت إلى تجربة واستعراض، ولو على نطاق محدود، القدرات العسكرية للدولة. وكان هناك هدف ثالث غير معلن ألا وهو إرغام **واشنطن** وحلفائها على التعاون مع روسيا في المجال العسكري والتكتيكي في المرحلة الأولى. وأخيراً، وإن لم يتم الإعلان عن ذلك أيضًا، إيجاد منطلقات للتعاون مع الغرب وإثبات أنه أمر واجب وضروري على جميع بلدان ليس فقط الشرق الأوسط والأدنى بل وأوروبا والعالم كله.

وكان من الواضح حجم المخاطر التي تتعرض لها **روسيا** بقرارها بالتدخل العسكري، ومنها توريط الدولة في عمليات عسكرية يمكن أن تؤدي الى مقتل مواطنين روس ولو بأعداد قليلة.

أما الخطر الثاني، فيتمثل في تنامي حدة الإرهاب ضد **روسيا** والذي تمثَّل في إسقاط الطائرة الروسية فوق سيناء وانتهاء بمحاولة تدبير وتنفيذ عمليات إرهابية في **روسيا** نفسها. وربما لا يرتبط هذا الجانب بشكل مباشر بعمليات القوات الجوية الفضائية الروسية في **سوريا**. فقد وقعت العمليات الإرهابية، وما زالت تقع بصرف النظر عن مشاركة **روسيا** المباشرة في الأحداث السورية. ولم يتم نشر أي بيانات أو إحصاءات رسمية حول حجم الكلفة الاقتصادية والمالية التي تحملتها **روسيا** في حملتها العسكرية تلك. وفي ظل ظروف الأزمة الاقتصادية كان أثر هذا العبء مضاعفًا.

وفي النهاية، من الضروري الأخذ في الحسبان التأثير القوي لوسائل الإعلام الغربية المعادية **لروسيا** والتي أصبح لديها مبرر إضافي لخلق بديل للواقع الافتراضي، وأصبحت تصف **روسيا**

بالدولة الطاغية التي تســاعد نظامًا دمويًّا على قتل شــعبه. وتم شــخصنة **روسيا** في رئيسها **بوتين**، وهو ما خفَّف من حدَّة التأثير على المتلقي، ويجب القول إن روســيا حققت ضربات مضادة قوية في حرب المعلومات والفضاء الإلكتروني.

وبشــكل عام، حققت الحملة العســكرية الروســية بنهاية عام 2017 نجاحًا سياســيًّا وعســكريًّا ملموسًا. ولا يمكن اســتخدام لفظة "**نصر**" كونها تفترض الأخذ بمعايير أخرى: ما الذي يمكن أن نطلق عليه "**انتصارًا**" أو "**هزيمة**" في الشــرق الأوســط والأدنى؟ هل هو إعمال القوة ضد التنظيمات المتطرفة والإرهابية وهزيمتها ودحرها تمامًا، وفي الوقت نفســه إطلاق العملية السياســية بين الحكومة والمعارضة السورية، وتشكيل حكومة انتقالية وصياغة الدســتور وإجراء الانتخابات؟ لو تم ذلك حينها يمكن الحديث عن النصر. أمر غريب ولكن كان ذلك ليصبح نصرًا للسياســة الغربية إذا ما فهمناها من منطلق الوقائع والمصالح الوطنية، وليس من منطلق إهانة **روسيا** ووضع أي شخص على رأس السلطة بشرط ألا يكون من بين أصدقاء **روسيا** وبعدها فليكن ما يكون.

وحســب منطوق نظرية السياســة الخارجية الروســية في عام 2016 " فإن **روسيا** تؤيد التسوية السياسية للأزمة السورية ومنح الشعب السوري الحق في تحديد مصيره على أساس بنود بيان **جينيف** بتاريخ 30 يونيو 2012 وتصريحات المجموعة الدولية لدعم **ســوريا** والقرارات ذات الصلة من مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة. وتدعم **روســيا** اســتقلال ووحدة أراضي **ســوريا** بوصفها بلدًا علمانيًّا ديمقراطيًّا قائمًا على التعددية، ويضمن التعايش السلمي والأمن لمختلف الطوائف التي تتمتع بنفس الحقوق والإمكانيات"[1].

وتبقى استراتيجية الخروج من الأزمة مهمة صعبة. فقد استطاعت **روسيا** لعب دور محوري في **ســوريا**. ولكنها عجزت عن القيام بدور مماثل في غيرها. وإذا اعتمدنا الواقعية في التفكير يجب علينا الاعتراف بأنها ليس بمقدورها لعب دور مماثل في دول أخرى بالشــرق الأوســط، وذلك لأســباب اقتصادية. فما زال التوجه الاقتصادي الرئيس لبلدان المنطقة تجاه واشــنطن وأوروبا الغربية والصين والهند ذات المعدلات المرتفعة من النمو. وفي المجال الاقتصادي ستبقى روســيا في المرتبة الثانية وربما الثالثة في المنطقة؛ ولذا فإن الســعي لإيجاد مواقف مشــتركة مع الغرب يبقى محورًا أساسيًّا في السياسة الروسية.

لقد أدت العمليات التي قامت بها القوات الجوية الفضائية الروسية إلى إثارة رد فعل إيجابي في الداخل الروسي ومن قبل المواطنين الروس الذي عانوا لسنوات طويلة من مشاعر الاحتقار من قبل الغرب. تنامت شعبية **بوتين** في السنوات التي تزامنت مع الأزمة الاقتصادية وانخفاض مستوى معيشة المواطنين. وبالطبع كان السبب الرئيس لهذه الشعبية موقفه في أزمة **القرم**. وأضافت العمليات العسكرية في سوريا إلى شعبية **بوتين**، وكان الوضع الداخلي مؤهلاً لذلك. غير أنه كانت هناك مخاوف من أن يكون ذلك هو النهج السائد في التفكير لدى القائمين على الحكم في البلاد.

وكان هناك عامل آخر له أثره على سياسة **روسيا** تجاه **سوريا**. وكان القادة الروس يتحدثون عنه صراحة. ونعني هنا تعاطف شريحة من المواطنين في روسيا وجمهوريات الاتحاد السوفيتي السابق مع **داعش** و**جبهة النصرة**، وغيرهما من التنظيمات الإرهابية.

وعندما بدأت عمليات القوات الجوية الفضائية الروسية في **سوريا** كان هناك ما يقارب 2000 جهادي ذوي أصول روسية ومن آسيا الوسطى يقاتلون في **سوريا**. وخلال عام ونصف من الضربات الجوية ارتفع العدد إلى 7000.[2]

ويعني ذلك، أنه وعلى الرغم من الخسائر الكبيرة في صفوفهم فإن عددًا من المقاتلين سيتمكن من العودة إلى روسيا، ويؤسسون هناك خلايا نائمة مستعدة للقيام وتنفيذ عمليات إرهابية. ودار الحديث عن كيفية توفير الأمن الداخلي والتعاون بين الديانات والطوائف ودعم التسامح الذي عرفت به **روسيا** في الماضي. كان من الضروري التصرف على نحو دقيق بحيث يتم استخدام القوة ضد الجهاديين مع الالتزام بإظهار الاحترام للإسلام والمسلمين.

فمن إذًا من اللاعبين الإقليميين والدوليين انتصر في سوريا؟ سنتحدث لاحقًا بشكل خاص عن الولايات المتحدة الأمريكية.

هناك **تركيا** التي تبنت منذ البداية مواقف المعارضة بما فيها الإسلامية، إلا أنها اصطدمت بحالة عدم استقرار داخلي بفعل عوامل عدة. كما أن ظهور منطقة كردية ذات حكم ذاتي على حدودها وفر قاعدة إضافية لفصائل مقاتلي حزب العمل الكردستاني الذي يخوض معارك مسلحة ضد **أنقرة**. وأدى التوتر المؤقت في العلاقة مع **روسيا** إلى تكبد **أنقرة** خسائر اقتصادية فادحة وإضعاف موقعها الجيوسياسي، وإجمالاً كانت أحلام استعادة المجد العثماني القديم هي الحاكمة للمساعي التركية لزعامة منطقتي الشرق الأوسط والأدنى.

ومـــاذا عن **إيران؟** مـــن الواضح أنها فازت بتعاونها مع **حـــزب الله** اللبناني وتقديم الدعم العســـكري للنظام الســـوري. وفي العراق تعاونت **إيران** مع **الولايات المتحدة الأمريكية** في دعم الشـــيعة في قتالهم ضد **داعش**. وبعد أن توصلت إلى اتفاق حل وســـط حول برنامجها النووي حققـــت **طهران** هدفها بإلغاء العقوبات الاقتصاديـــة المفروضة عليها وأطلقت يدها للعب دور نشـــط بالمنطقة. ولكنها أصبحت شـــريكًا في الصدامات المتصاعدة بين الشـــيعة والسنة. ويرى الشارع العربي أن إيران تحولت من بلد معادى للغرب ويحظى بشعبية كبيرة إلى محور للمذهب الشيعي العدو للمذهب السني الغالب بين المسلمين.

وتنامى الثقل السياســـي لـــكل من **إيران** و**تركيا** بعد تعاونهما مع **روســـيا** في دعم وقف إطلاق النار في **سوريا** واستئناف العملية السياسية.

وهناك أيضًا قطر التي خسرت كثيراً برهانها على الإسلاميين في الحرب الأهلية السورية. بدا أن الأموال تلعب دورًا مهمًّا ولكن ليس حاسمًا في سوريا خاصة والمنطقة عامة.

وقد رفضت **الســـعودية** لعب دور خلـــف الكواليس الذي حققت فيـــه نجاحًا كبيراً في ستينيات وسبعينيات القرن الماضي إبان حكم الملك **فيصل**. حيث شاركت بشكل مباشر في حرب اليمن وبشـــكل غير مباشر في الحرب السورية. وكان من أهم أسباب ذلك هو مقاومة الاستراتيجية الإيرانية. كما كان للدور السعودي في مصر أهمية كبيرة، حيث راهنت **الرياض** على ســـقوط **الإخوان المسلمين** غير أن الخوف من خطر الشيعة دفعها إلى عدم الانضمام إلى **روســـيا** و**إيران** و**تركيا** في لعب دور وســـيط الســـلام في الأزمة الســـورية، ولا شك كان لانخفاض أسعار النفط والإنفاق العسكري أثاره السلبية على الاقتصاد .

أما الفشل الأمريكي الأساسي المعلن فقد تمثل في عجز **واشنطن** عن عزل النظام السوري و**بشـــار الأسد** شخصيًّا، ولكنه لم يكن سوى حلقة في سلســـلة من الأخطاء التي ارتكبتها **واشنطن** في الشرق الأوسط والأدنى.

ومنذ ربع قرن فاجأتنا القوة السوفيتية بانسحابها من معادلة الشرق الأوسط والأدنى. كان **الاتحاد السوفيتي** أحد العوامل المهمة في تحقيق التوازن في هذه المنطقة ما ساعد على تحقيق الاستقرار. وبدا وكأن الساحة أصبحت ممهدة لفرض **واشنطن** هيمنتها على المنطقة بمفردها.

وتغير الوضع بشكل كبير للوهلة الأولى فلم يعد هناك ''**خطر شيوعي**'' أو مواجهة سوفيتية أمريكية أو تعامل مع قضية الشرق الأوسط بوصفه أحد أوجه هذه التنافس ولم يعد هناك في المنطقة أصدقاء ''**أيديولوجيون**'' للاتحاد السوفيتي. حتى إن بعض جمهوريات الاتحاد السوفيتي الجنوبية التي أصبحت مستقلة فيما بعد سرعان ما أصبحت جزءًا من الدراما الإقليمية.

وفي التسعينيات من القرن الماضي والعقدين الأخيرين تغير التوازن الاستراتيجي في المنطقة. ففي حين بقي تحالف الولايات المتحدة وإسرائيل قائمًا، تحولت العديد من اتفاقيات التعاون والصداقة وشبه التحالف بين **موسكو** وعدد من البلدان العربية إلى **رماد**.

أصبح التوازن في المنطقة لصالح إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية. ولم يكن بمقدور العالم الإسلامي عسكريًّا واقتصاديًّا مواجهة هذا التهديد. وكان رد الفعل في المجتمع الإسلامي تجاه ذلك هو انفجار ظاهرة التطرف الإسلامي والأصولية. وبدت هيمنة الولايات المتحدة الأمريكية على المنطقة مطلقة لا حدود لها. غير أن إيران أعلنت التحدي وكانت سوريا وليبيا تتبنيا مواقف شجاعة. بالطبع كانت هناك رغبة لدى الدول الثلاث في إرساء علاقات تعاون وشراكة مع **واشنطن** ولكن الأخيرة لم تكن مستعدة لذلك.

و في تلك الفترة أي تسعينيات القرن العشرين لم يكن بمقدور **روسيا** التدخل ومنع **واشنطن** رغم أنها أحيانًا كانت تشير إلى الأخطاء التي ترتكبها السياسة الأمريكية في المنطقة. ولكن لم يحدث مواجهه بين الطرفين بل على العكس كان الطرفان يسعيان لإيجاد سبل للتعاون.

ولعل أوضح مثال على ذلك الدعم الذي قدمته **موسكو** للعمليات العسكرية التي قامت بها الولايات المتحدة الأمريكية و**الناتو** في أفغانستان حيث قامت قوات شمال الأطلسي وليس **أمريكا** باحتلال **كابول** وتم توفير الإمكانات اللوجيستية لنقل قوات من وإلى **أفغانستان** وكان هناك تنسيق بين أجهزة المخابرات في ذلك.

حاولت **روسيا** إثبات ضرورة انتهاج سياسة جديدة: عدو عدوي ليس بالضرورة صديقي بل ربما هو عدونا المشترك، والانتصار عليه يعني أن يربح الجميع. غير أن واشنطن رفضت هذه السياسة نظرًا لهيمنتها حينئذ على المنطقة.

وبعد فترة من الانهيار وعدم الاســتقرار بدأت من جديد تتشــكل مصالح إقليمية وعالمية لدى روسيا. وبفضل قدراتها النووية والديموغرافية والإقليمية والعالمية بقيت روسيا ضمن الدول الأقوى في العالم. وهذا تحديدًا ما لم يكن الغرب يرغب في تصديقه أو القبول به ما تســبب في بعض التوتر في البداية سرعان ما تحول إلى حرب باردة محدودة.

ولا يمكن تقييم السياســة الروســية والغربية في المنطقة بمعزل عــن أوروبا والوضع العالمي والأحــداث في أوكرانيا والقــرم. فعندما انتهت الحرب الباردة بهزيمة وانهيار الاتحاد الســوفيتي ســيطرت لبعض الوقت على مشاعر القيادة الروســية أحلام إرساء علاقات متوازنة ومتبادلة مع الغرب.

غير أنه بدا أن الزعماء الغربيين المنتشــين بانتصارهم في الحرب الباردة التي خسرها الاتحاد السوفيتي اقتصاديًا واجتماعيًّا ومعلوماتيًّا وليس عسكريًّا، قاموا ببعض التصرفات التي لا يمكن وصفها ســوى بالعدوانية ضد **موســكو**. حيث تم ضم بلدان البلطيق وأعضاء حلف **وارسو** القديم إلى **الناتو** وهو ما أدى إلى اقتراب قوات الحلف من الحدود الروســية. كما تم نشــر منظومات مضادة للصواريخ في بلدان أوربا الشرقية أملاً في تقليص أو إفشال أي ضربة مضادة للقوات الروســية الاستراتيجية. ولم يهتم أحد بمصالح **روسيا** الوطنية وأمنها. كان الهدف هو انهيار **روســيا** نفســها. ودار حديث عن أن **سيبيريا** أرض غير روسية بل هي **"ملك للعالم كله"**.

وقد اعترفت **موســكو** بالحــدود الإدارية الســابقة والتي كانت قائمة بــين الجمهوريات الســوفيتية. ومن خلال المصادر التي اطلعت عليها تبــين لي أن هناك مفاوضات جرت بين روســيا وأوكرانيــا لتحديد ملكية كل طرف للجزء الواقع في مضيق **كيرتشينســكي**. غير أن السياسة الروسية تجاه أوكرانيا رغم ذلك كنت تقوم على ثلاثة مبادئ:

أولا: يجب أن تبقى أوكرانيا بلدًا صديقًا ومحايدًا لن يشارك يومًا ما في تحالفات وتكتلات عســكرية. (وفقًا للإعلان الصادر عن السيادة الأوكرانية في عام 1990م)[3] وألا تمثل أراضيه أي تهديد لأمن **روسيا**.

وثانيًا: أن تبقى القواعد العســكرية الروسية في القرم والتي تحمي الحدود الأجنبية لروسيا، تحت السيطرة الروسية.

وثالثًا: أن تبقى اللغة الروسية التي يتحدث بها حوالي نصف السكان لغة رسمية أو لغة تعامل بين القوميات في أوكرانيا.

هذا كل شيء؟ نعم. ما عدا ذلك يمكن التفاوض عليه بما يحقق مصلحة الشعبين الشقيقين. وكما قال **جروميكو**: ''**من الأفضل أن تقضى عشر سنوات في مفاوضات، على أن تقضي يومًا واحدًا في حرب**''.

غير أن أصوات القوميين في أوكرانيا أضحت هي المسيطرة على المشهد. ودعمت مؤسسات غربية عديدة نشر مشاعر **الروسوفوبيا** في أوكرانيا. ورغم الوعود السابقة تم اتخاذ عدد من الإجراءات لاجتذاب أوكرانيا لعضوية **الناتو** وصدرت عن القيادات الأوكرانية تصريحات رسمية رأى فيها القوميون هناك خطة عمل. وتم وضع العديد من العراقيل أمام عمل القواعد العسكرية الروسية في القرم. وأكثر من ذلك تم تنظيم مناورات مشتركة بين قوات **الناتو** القوات المسلحة الأوكرانية على أراضي الجزيرة على الرغم من احتجاج السكان المحليين.

ولم تستطع **روسيا** تجاهل ذلك. أخذت مظاهر الحرب الباردة تتصاعد حتى اشتعلت الأحداث في **سوريا** وفي ساحة الميدان بالعاصمة الأوكرانية وتم تنظيم الاستفتاء في **القرم** ومن ثم إراقة الدماء في **دونباس**. وكانت الخسائر فادحة بالنسبة لروسيا وأوكرانيا.

ولم تلق دعوات **روسيا** أي اهتمام سواء تلك التي سعت للبحث عن نقاط تلاقي مع الغرب ومساحة لتحقيق المصلحة المشتركة وسبل للحل السلمي للصراعات وخاصة في الشرق الأوسط والأدنى، حيث تم تحريف هذه الدعوات ورفضها. فهل كان ذلك تصرفًا حكيمًا من قبل زعماء الغرب ووسائل إعلامه؟ وهل يتفق ذلك والمصالح الوطنية للدول الغربية والطموحات الأنانية لنخبها. وبدا أن **روسيا** بقيت تمثل الاتحاد السوفيتي في نظرهم والعدو الأيديولوجي القديم ليس فقط لأنها تحاول خلق نظام اجتماعية وسياسي بديل يرفض القيم الغربية القائمة على الملكية الخاصة والفردية. فروسيا يجب عليها ببساطة أن تخضع وتسير وفق الطريق الذي حدده الغرب. وإذا لم يحدث ذلك فهي عدو لنا.

غير أن هناك تساؤل طرحه القادة في **موسكو** على أنفسهم: لأي مدى كان تصرف الغرب صائبًا في علاقته بالعالم وخاصة الشرق الأوسط والأدنى؟ ولأي مدى كانت سياساته فعَّالة؟ ألم تؤد هذه السياسات إلى تبعات سلبية على الجميع؟ ألا تعتبر آثار التدخل العسكري في العراق ثم في ليبيا دليلاً على ذلك؟ لقد أصبح العالم متعدد الأقطاب ولكن **واشنطن** لم تقبل الاعتراف بذلك.

ماذا تحتاج **روسيا** من المنطقة؟ الاستقرار ووضوح آفاق المستقبل. علاقات تجارية واقتصادية وثقافية وسياحية وتأمين للطرق الجوية والبحرية. تلك أهداف معلنة. وهي مشتركة بين **روسيا** والغـــرب والصـــين والهند. صحيح أنه لا أحد اليوم بمقدوره ضمان الاســـتقرار ووضوح الرؤية المســـتقبلية حتى في منطقة شمال الأطلســـي، وحتى فيما يتعلق بعلاقات الولايات المتحدة مع الصين ناهيك عن الشـــرق الأوسط والأدنى. وتزداد في العالم الصراعات والتناقضات المرتبطة بعدم التوازن بين الدول في معدلات التنمية وبالمنافســـة بين القيـــم المختلفة، وتبدو المنظومة العالمية بأكملها عرضه لخطر الفوضى.

وليـــس بمقدور **روســـيا** مهما كان الدور الذي تقوم به في ســـوريا كبـــيراً أن تصبح لاعبًا رئيسيًّا في عالم متعدد الأقطاب ويرجع ذلك لأسباب اقتصادية. غير أن التعاون مع اللاعبين الإقليميين والدول العظمى في العالم يمكن أن يتســـع ليشـــمل قضايا عدم الانتشـــار النووي وأســـلحة الدمار الشـــامل والقضاء على التجارة غير الشرعية للســـلاح والهجرة غير الشرعية والاتجار بالبشر وتجارة المخدرات. كما أنه بدون بذل جهود مشتركة لا يمكن حل مشكلات الأمن الاقتصادي وتغير المناخ والمياه.

ويبقى الإرهاب أو بالأحرى التطرف الإســـلامي التحدي الأكبر. وتنص عقيدة السياسة الخارجية الروســـية على أن ''روسيا تعتبر مكافحة الإرهاب الدولي هدفا رئيسيًّا وأولوية روسية لتحقيق الأمن الدولي''. [4]

ومـــن الممكن هزيمـــة **داعش** و**النصرة** عســـكريًّا، كما حدث في الســـابق مع **القاعدة** و**طالبان**. غير أن هذه المنظمات المتطرفة ســـرعان ما تظهـــر في عباءة جديدة. فأيديولوجية الإرهاب والتطرف تطرح إجابات بسيطة (أو هكذا تبدو) على قضايا معاصره معقدة.

ويمكـــن تحقيـــق النصر التام على هذه التنظيمات في حال تم بذل جهود مشـــتركة وتغيير جذري للظروف الاقتصادية والاجتماعية والفســـيولوجية وإرساء علاقات تقوم على المساواة والاحترام المتبادل. حيث تبدو خطط **داعش** لتأســـيس خلافـــة عالمية أو إقليمية أفكارًا من العصور الوســـطى ومحكوم عليها بالفشـــل. غير أنها أفكار تتجدد من وقت لآخر ولها مقدرة على اجتذاب مؤيدين كثر. وكلما زادت الفوارق بين مســـتوى أغلب دول العالم الإســـلامي ومنطقة أوربا والأطلســـي كلما ازدادت الاحتجاجات التي تأخذ أحيانًا منحى الفض والعنف والإرهاب. فالإرهاب كان وسيظل. الأمر يكمن في تضييق نطاقه ومساحته.

وسوف تتعرض منطقة الشرق الأوسط والأدنى للتغيير. ولكن المهم كيف وإلى أين؟ فهل بدت المنظومة الإســـلامية للديمقراطية الشـــيعية في إيران ناجحة وفعَّالة؟ ولقد أثبت استخدام الأطر الشـــبيهة بالديمقراطية الغربية فعاليته في دعم القوى الإسلامية المعتدلة في **تركيا**. ولكن هل سيمتد ذلك لفترة طويلة؟ كيف يمكن ضمان التحولات الجارية في مصر والممالك العربية؟ الأسئلة كثيرة وتبدو أكثر من الإجابات.

لم تتدخل **روسيا** في هذه الأحداث ولم تلعب أبدًا دور المعلم أو تفرض ذلك على أحد. تبنت **موســـكو** دومًا موقفًـــا محايدًا وإيجابيًّا تجاه أحداث الربيع العربي والشـــتاء العربي. كان موقفها دومًا أن شعوب المنطقة هي من تختار مستقبل التنمية فيها. إلا أنها لا تسمح بالرضوخ لمواقف التطرف الإسلامي والإرهاب.

بقي لدى روســـيا إرث من التعاون الذي يعود لمئات السنين مع جيرانها الجنوبيين ولعقود مع العالم العربي. وأصبحت أكثر برجماتية وتخلصت سياستها من التبعية ولم تعد تابعة **للعرب** أو **إســـرائيل** بل تســـعى لخدمة مصالحها الخاصة. وبعد محاولات لمطابقة سياستها في الشرق الأوسط والأدنى مع سياسة **واشنطن** أصبح من الواضح أن مصالح كل من **روسيا** و**الولايات المتحـــدة الأمريكية** في المنطقة متباينـــة وإن لم تتنافس فيما بينها، وأن الغرب لا يعتزم قبول **روسيا** عضوًا في اللعبة الكبرى. وتم اعتبار التنازلات التي تقوم بها **روسيا** من طرف واحد أمرًا واجبًا وفي أفضل الأحوال كانوا يقبلون بمشاركتها شكليًّا في الفعاليات الدولية الخاصة بالمنطقة.

لقد أرغمنا تخلي **روسيا** عن هيمنتها وعن مواجهة الغرب وعن أفكارها الرسولية إلى إعادة النظر في علاقاتنا وموقفنا تجاه الصراعات في المنطقة. فإذا كانت القضية الأساسية في السابق تتمثل في حلفاء وأصدقاء أي طرف من الطرفين سينخرطون في الصراع وأن "**عدو عدوي**" يصبح صديقي، فإنه في الوقت الراهن هناك توافق بين تحويل الشـــرق الأوســـط والأدنى إلى منطقة ســـلام واستقرار مع المصالح قصيرة وطويلة المدى لكل من **روسيا** و**الولايات المتحدة** و**الغرب**. ونكرر: "**عدو عدوي**" يمكن أن يصبح عدوًّا مشتركًا.

لقد راهنت **روســـيا** في سياساتها على دعم العلاقات الثنائية. وأصبح المكون الاقتصادي فيها أساســـيًّا ويزداد تأثيره مع خروج البلاد من الأزمة الاقتصادية وتحسن علاقاتها الاقتصادية الخارجية. ويظهر نشـــاط **روســـيا** في بناء مفاعلات كهربائية نووية وإطلاق أقمار صناعية أن بمقدورها أن تصبح شـــريكًا في مســـتقبل صناعة التكنولوجيا عالية المستوى. كما أن القرب

الجغرافي وتكامل الاقتصاديات من خلال تأسيس شركات مشتركة والاستثمار المتبادل لرؤوس الأموال يمكن أن يسمح لروسيا بالتعرف على مكامن قوتها.

و من المتوقع مســتقبلاً تنامي حجم التبادل التجاري بين روســيا ودول الشرق الأوسط. وما زالت الصادرات الروســية العســكرية تمثل مكونًا مهمًّا للتوســع الاقتصادي الروســي. وتشارك **روسيا** في كل الإجراءات الساعية إلى الحد من الانتشار النووي والأسلحة الكيماوية والبيولوجيــة في المنطقة. وتعتبر هذه المنطقة ســاحة مؤهلة لتحقيق تعاون وتفاهم متبادل بين **روسيا** والغرب. غير أن **موسكو** تتفهم بشكل إيجابي المصالح الدفاعية المشروعة لعدد من دول المنطقة. لم يقم أي منها بســداد الديون العسكرية القديمة ولن يقدم أحدهم على سداد ثمن أي طلقة نار أطلقت بالفعل لا سيما إذا لم تصب هدفها.

وربمــا تتواصل العمليات الإرهابية والتفجيرات وربما الحروب في المنطقة وربما يتحول الوضع إلى فوضى محدودة. فالتيارات السياســية التي تناضل من أجل انتهاج خطط مختلفة في التنمية ســتواصل بحثها عن نماذج جديدة سواء ليبرالية ديمقراطية أو إسلامية او غيرها. وقد أظهرت **روسيا** حيادها الإيجابي فيما يتعلق بكل التجارب السياسية والاجتماعية التي خاضتها شعوب المنطقة باستثناء التطرف والإرهاب الذي يعد تهديدًا عالميًّا.

وفي سياساتها الخارجية ستراعي **روسيا** الرأي العام الداخلي ومشاعر التعاطف أو المعارضة لأي تيارات سياســية أو اجتماعية أو دينية ولأي بلد أو نظام. وســيظل التأثير القوي لنتائج صناديق الاقتراع والفضاء المعلوماتي ووسائل الإعلام على موقف القيادة الروسية، وعلى النهج السياســي الخارجي للدولة؛ ولذا فإن سلوك **إسرائيل** ومصير المقدسات الإسلامية والمسيحية في القدس والصراعات المحتملة بين البلدان الإســلامية والغرب ومصير السكان المسيحيين في المنطقة ستبقى قضايا محورية في السياسة الخارجية والداخلية في **روسيا**.

وســتقوم العلاقات الروســية التركية على الجمع بين الحرص على تحقيق المصالح المشتركة والســعي إلى تقليــص أو تجاهل التناقضات، والخلافات فيما بينهمــا مع الأخذ في الاعتبار ظهور لاعبين غير حكوميين على الســاحة الســورية وخاصة الأكــراد. ومع عدم التضحية بمبادئها ستسعى **موسكو** إلى الحفاظ على علاقات طبيعية مع الحكومات والدول التي يقطنها الأكراد. غير أن القضية الكردية والتي تمس العراق وإيران وســوريا وتركيا تمثل أكثر الصعوبات تعقيدًا. وســتبقى **موسكو** على أهبة الاســتعداد للتصرف إزاء القضية الكردية مثلما كانت

دومًا. يبدو الوضع غير مريح ولكن ليس في الإمكان أفضل من ذلك.

وتنتهج **موسكو** خطًّا يدعم التعاون الشامل مع الجمهورية الإسلامية الإيرانية وفي نفس الوقت التوصل إلى تسوية نهائية للبرنامج النووي الإيراني على أساس قرارات مجلس الأمن والوكالة الدولية للطاقة الذرية، وتقدم كل الدعم الممكن لتحقيق هذه الأهداف.

وترتبط **موسكو** بعلاقات خاصة مع **القاهرة**. وبدا أن البلدين مختلفان تاريخيًّا وثقافيًّا ودينيًّا ، ومن حيث المساحة ونمط الحياة ومتباعدان جغرافيا. تبدلت الأنظمة والأيديولوجية والسياسة. ولكن بدا أن مصالحهما المشتركة لم تتصادم يومًا ما بل كانت دائمًا تكمل بعضها بعضًا. وسيكون ذلك أساسًا لبناء العلاقات بين البلدين في المستقبل.

إن تحويل الشرق الأوسط والأدنى إلى منطقة سلام واستقرار وتسوية الصراع العربي الإسرائيلي بوصفه "**أم القضايا**" من شأنه أن يلبي المصالح الروسية قصيرة وطويلة الأمد.

وتواصل **موسكو** الترحيب بالتسوية الشرق أوسطية وفقًا لمبدأ " **الأرض مقابل السلام**". ولكن من الصعب أن تصبح ضمانة لأي اتفاق إذا لم يتم الالتزام بمبادئ واضحة ومحددة. فحتى السياسة السوفيتية الرسمية المعلنة تجاه الشرق الأوسط كانت تبدو جامدة وغير مرنة أو قابلة للتطور كونها كانت مبدئية. لم تتغير هذه السياسة حتى مع تغير الأنظمة من السوفيتي إلى ما بعد السوفيتي، وستبقى تسوية الصراع في إطار قرارات مجلس الأمن رقم 242 (1967) و338 (1973) أساسًا ومنطلقًا للسياسة الروسية.

وترى **روسيا** أن جميع القضايا يمكن أن تصبح مادة للتفاوض والبحث عن حل وسط سواء قضية السيادة أو حدود الدولة الفلسطينية القادمة أو شكل القيادة الفلسطينية والتزام الدولة الجديدة بالحياد ونزع سلاحها وطبيعة علاقاتها مع كل من الأردن وإسرائيل ومصير اللاجئين وغيرها.

وستتكبد **روسيا** خسارة مضاعفة في حال اعترفت بمبادئ أخرى للتسوية كتلك التي تقترحها إسرائيل. **فأولاً**: من شأن التراجع عن الالتزام بالمبادئ السابقة أن يفقد **روسيا** مصداقيتها في العالمين العربي والإسلامي. و**ثانيًا**: أن التسوية التي تفتقد للمبادئ تعني فرضًا لإرادة الطرف الأقوى وهو **إسرائيل** وحليفتها الاستراتيجية **واشنطن** وهو ما يمهد لإشعال صراع أكثر عنفًا ودمارًا في المستقبل القريب.

ويخلص موقف **مؤلِّف هذا الكتاب** فيما يتعلق بالقضية الشـــرق أوسطية إلى ما يلي: إن الصراع في شـــكله الحالي ســـيمتد لفترة طويلة. حيث تقوم **إسرائيل** بانتزاع المزيد من الأراضي الفلســـطينية يومًا بعد يوم، وتقوم ببناء مســـتوطنات جديدة على الرغم من عدم ارتفاع نسبة الزيادة الســـكانية في الداخل الإسرائيلي، ففي **إسرائيل** يعيش ثلث يهود العالم تقريبًا. وليس من المتوقع حدوث موجة جديدة من هجرة اليهود إلى إســـرائيل رغم أنه من غير المستبعد أن تعـــاود يهود العالم الرغبة في الهجرة إلى **"أرضهم التاريخية"** بفعل الوضع الدولي المتغير وغير المتوقع.

وإذا ما تحدثنا عن تطور الأحداث يمكنا اقتراح أكثر من سيناريو:

الأول – هو ما تحدثنا عنه للتو.

الثاني – أن يتم الحل وفقًا لمبدأ التطهير العرقي للفلســـطينيين أي طردهم إلى خلف خط الهدنة الذي تسيطر عليه **إسرائيل**. وهي الخطوة التي يمكن أن يقدم عليها اليمين المتطرف في تحدٍ صارخ للعرب والمسلمين كافة، وللمجتمع الدولي. وهو سيناريو متطرف وصعب التحقيق نظرًا لسيطرة تكنولوجيا المعلومات على العالم، حيث أصبح من الخطورة بمكان أن تضع العالم أمام الأمر الواقع. إن التاريخ يثبت أن الحق يعود لأصحابه وأن الشر يعود على أصحابه.

أما الســـيناريو الثالث فيبدو نظريًّا ســـاذجًا بعض الشـــيء ومثاليًّـــا وصعب التحقيق. ويتلخص في تأسيس دولة عربية يهودية مع منح مواطنيها حقوقًا متساوية، وأن يشارك العرب على قدم المساواة مع اليهود في الحياة السياسية والاقتصادية والعسكرية والثقافية وغيرها، وأن يكون لهم الحق في امتلاك الأراضي وغيرها من الممتلكات. دولة كهذه في حال نشأت بالفعل ســـتصبح مركزًا علميًّا وتكنولوجيًّا وابتكاريًّا واقتصاديًّا وماليًّا في الشرق الأوسط، وستؤدي إلى ازدهار **إسرائيل** و**فلسطين** والمنطقة بأكملها. ستختفي الخطابات المعادية لإسرائيل، وستتاح إمكانات هائلة للاســـتفادة مـــن القدرات التي لدى اليهود والفلســـطينيين، ويعم الخير على الجميع.

و يمكن القول إن هذا السيناريو مرفوض من قبل أغلب اليهود ونسبة كبيرة من العرب نظرًا لأن الكراهيـــة المتبادلة وفقدان الثقة على مدى أعوام طويلة تلت الحروب العربية الإســـرائيلية وتأســـيس **إسرائيل** أصبحت من المكونات الأساســـية في السياسة والفسيولوجية الفلسطينية والإســـرائيلية. نشـــأ جيل من الفلسطينيين خاصة من الشـــباب يكره ليس فقط إسرائيل بل

كل اليهود. وهم على اســتعداد إذا ما تعذر الحصول على سلاح إلى أن يستخدموا المسطرة كســكين يقتلون به أي يهودي. أما الجندي الإسرائيلي فيرى أن لديه الحق في قتل أي عربي يثير ريبته أولاً ومن ثم يتأكد من نواياه فيما بعد.

من الصعب تغيير هذه الفسيولوجية. ومن الصعب أيضًا الفصل بين الطرفين على الأرض. لم يؤد انســحاب **إســرائيل** من **قطاع غزة** إلى تحوله هونج كونج جديدة بل إلى جيتو ضخم متخم بالسلاح وغاضب يرفض التعايش مع **إسرائيل** رغم أن هذا هو الأمر الواقع.

أصبحت المفاوضات حول تأســيس الدولة الفلسطينية مادة للنقاشات السياسية بما فيها داخل **روســيا**. وكانت القضية الأساســية هي التوصل إلى تحديد لمفهوم ''**الدولة**''. فإذا كنا نعني بها العلم والنشــيد و''سيارات مرسيدس'' التي تنقل كبار المسؤولين وحرس الشرف إلخ، فإن حلم ''**الدولة**'' الفلسطينية قابل للتحقيق.

غير أنها في واقع الأمر ســتكون بمثابة بلدية تنحصر مســؤولياتها في توفير خدمات المياه والصرف الصحي والمدارس والمستشــفيات إلخ. وماذا عن السيادة والأراضي؟ لا حديث عن الســيادة تحت الاحتلال، أما الأراضي المأهولة بالفلســطينيين فتمثل مناطق مفصولة ومنعزلة عن بعضها لا يمكن أن تتحول إلى دولة حقيقية بدون إجلاء نسبة كبيرة من السكان اليهود وهو أمر غير واقعي على الإطلاق.

وفي مثل هذه الظروف ستســتمر **روسيا** في دعم إرساء علاقات سياسية واقتصادية ودية مع إســرائيل وستسعى لإيجاد نقاط للتلاقي وإصدار تصريحات وإعلانات مشتركة فيما يتعلق بقضايا مكافحة الإرهاب وربما يصل الأمر إلى تبادل الخبرات في هذا المجال. وستواصل **روسيا** الحديث عن اعترافها بحقوق الفلسطينيين وتقديم نوع من الدعم لهم، وستحافظ على علاقاتها بمختلف الفصائل الفلســطينية. وماذا أيضاً؟ بطبيعة الحال ســتقوم **روســيا** بتطوير علاقاتها الثقافية والســياحية مع **إســرائيل** كما يتم توطيد الروابط بين العائلات اليهودية في البلدين. غير أن الولايات المتحدة الأمريكية ســتبقى الشريك الاستراتيجي الحقيقي والحليف والحامي لإســرائيل، وليس بمقدور **روســيا** أن تحل محلها بأي حال من الأحوال. كما أن **روسيا** أيضًا ليست في حاجة إلى هذا التحالف.

وما زال هناك تجاهل لعامل حاســم في تحديد سياســات **روســيا والولايات المتحدة الأمريكيــة** وغيرها من الدول في المنطقة. فالاقتصاد العالمــي في العقدين أو الثلاث القادمة

يمكن أن يشـــهد عجزًا في موارد الطاقة من هذه المنطقة. وســـتتقلص إلى حد كبير أرباح دول المنطقة من النفط والغاز، وهو ما سيؤثر بالطبع على الوضع الاقتصادي فيها.

ويكمن السبب في ثورة **النفط الصخري** التي تشهدها الولايات المتحدة في الآونة الأخيرة. وكان من أســبابها الارتفاع المبالغ فيه في أســعار النفط حينما بدا للكثيرين أن الاحتياطيات النفطية أوشكت على النفاد؛ ولذا قفزت الأسعار بشكل كبير. ودفع ذلك الولايات المتحدة إلى تكثيف نشــاطها في إنتاج **النفط الصخــري**. وفي حين كانت تكلفة إنتاج برميل **النفط الصخري** منذ 7–5 ســنوات تبلغ 100 دولار فإنها اليوم قد انخفضت كثيراً إلى 50–20 دولارًا. وساعد التطور الكبير في تقنيات التنقيب والإنتاج على إحداث قفزة كبيرة في الإنتاج وهو ما يعني أن السوق الذي مازال فيه برميل النفط يحافظ على مستوى 50 دولاراً ربما يشهد تخمة في المعروض قريبًا بفضل تنامي إنتاج **النفط الصخري**.

وبالطبع ســتبقى تكلفة إنتاج النفط في بلدان الخليج هي الأدنى حيث تبلغ أقل من 10 دولارات للبرميل. وســيكون في مقدور المنتجين الحفاظ على حصة كبيرة من السوق. غير أن الهبوط الكارثي في مداخيل النفط ســيغير كثيراً من الوضع المالي والاقتصادي والاجتماعي في المنطقة وفي روسيا أيضًا.

وفي الوقت نفســه ســتزداد إمدادات الطاقة المتجددة من المصادر غير التقليدية وخاصة طاقة الشــمس والرياح. كل ذلك من شــأنه الحد من أهمية مصادر الطاقة في منطقة الشرق الأوســط والأدنى بالنســبة للولايات المتحدة وأوروبا وإن كانت ستبقى مهمة بالنسبة للصين والهند واليابان.

وهناك تباين في تقدير تكلفة إنتاج برميل النفط في روســيا، حيث يؤكد البعض أنها تبلغ دولارين للبرميل في المتوســط في حين يبلغ متوســط تكلفة الإنتاج من الآبار القديمة ســتة دولارات ومن الآبار الجديدة 20عشــرين دولارا. وفي كل الأحوال فإن مستقبل إنتاج النفط في **روسيا** ســيكون لمنطقة المحيط القطبي الشمالي، وهو ما سيضاعف التكلفة. فالآبار الغنية بالنفط تتطلب تقنيات عالية لا تمتلكها **روسيا**. وهناك تعقيدات في التعاون مع بلدان **منظمة أوبك** وخاصة دول الشــرق الأوسط والأدنى؛ ولذا فإن إرساء هذا التعاون يظل من أولويات السياسة الروسية الخارجية.

إن **روسيا** تتميز بموقع جيواستراتيجي فريد. فهي البلد الوحيد في شمال العالم الذي تمتد حدوده لآلاف الكيلومترات مع بلدان إسلامية ناشئة. فهل سيمثل ذلك سببًا لظهور منطقة للصراعات والأزمات أم أن **روسيا** وجيرانها سيحافظون ويؤسسون أطرًا جديدة للتعاون والتعايش المشترك؟ تلك واحدة من التوجهات المبدئية في سياسة **روسيا** تجاه جيرانها.

وفي معرض تقييمنا للسياسة الخارجية، نواجه العديد من الأسئلة التقليدية أو قل الفلسفية حول معايير النجاح والفشل. فإذا تحدثنا عن مكانة السياسة الخارجية في العلاقات بين مختلف الدول والحضارات، فإنه سواء شئنا أم أبينا يتوجب علينا التفكير ليس بمقياس السنين أو العقود بل بالقرون. وما السياسة الروسية أو الأمريكية أو الصينية أو الأوربية في الشرق الأوسط والأدنى سوى صفحات محدودة الزمان والمكان من تاريخ العلاقات بين العالم الإسلامي والحضارات الأخرى. وستمر هذه العلاقات بمحن وآلام حتى تصل إلى التعايش والتجانس بين الطرفين. هذا هو الحل الوحيد وإلا فالبديل هو نهاية العالم.

إن التحديات التي تواجه الإنسانية في القرن الحادي والعشرين والتهديدات بنشوب حروب نووية وكيماوية وبيولوجية، وحرب المعلومات الدائرة بالفعل والنتائج الكارثية لانتشار تكنولوجيا المعلومات والكارثة البيئية وهجرة الملايين وتفشي الجريمة المنظمة لا يمكن مواجهتها سوى بالعمل والجهد المشترك بين الجميع.

وبالأمس وبفضل تقدمها في مجال التكنولوجيا وإنتاجية العمل والابتكار والهياكل السياسية والاجتماعية وقيمها وتطور وسائل الاتصال فيها وانتشار الإنترنت اعتبرت دول الحضارة الأوربية نفسها نموذجًا يحتذى بين دول العالم. واليوم أصبح كل ذلك محض أوهام. فالحضارة العالمية الجديدة يجب أن تقوم على علاقات متساوية ومتوازنة. وفي عالم جديد ومتغير سيقوم كل بلد بتحمل مسؤولياته ويقدم إسهاماته في الارتقاء بالحضارة العالمية وإثراءها بما لديه من إنجازات حضارية.

إن تجربة اليابان وماليزيا والتنينات الأربع (كوريا الجنوبية وتايوان وهونج كونج وسنغافورة — المترجم) ثم الصين العظيمة، تؤكد أنه بمقدور الدول الإسلامية تحقيق التطور والتقدم بمفهومها ورؤيتها الخاصة. ولكن متى وكيف سيحدث ذلك؟ من الصعب أن نقدم إجابة الآن.

إن النموذج الاقتصادي والسياسي والاجتماعي السوفيتي نفسه، كان بمثابة محاولة لتطبيق نظريات اجتماعية راديكالية نشأت في مجتمعات برجوازية في أوربا الغربية في القرن التاسع

عشـــر. وقد تعلمت الإنســـانية الدرس من خلال التجارب والايجابية والســـلبية التي عاشتها البلدان الاشـــتراكية. وبدون ذلك كان مصير أوربا والعالم بأســـره ليصبح غير الذي هو عليه اليوم. صحيح أن الثمن الذي دفعه الشعب الروسي كان فادحًا.

إن مســـاعي **روسيا** الحالية لتكرار بعض أشكال التطور الغربي تبدو واضحة جلية، ولكن من المســـتحيل استنســـاخ النموذج الأوروبي، وإلا ســـتكون النتيجة هي الفشل المحتوم. فكل تاريخ العملاق الروســـي وهيكل الدولة الروسية المميز وفسيولوجية الإنسان الروسي والشعوب التي تعيش على أراضي **روســـيا** ومنظومة القيم التي يتقاسمونها تؤكد أنها ورغم قربها من الغرب واستعارتها بعض قيمه، إلا أنها ستبقى تحتفظ بخصوصيتها وشخصيتها. كما أن نهضة الشرق ورغبة **روســـيا** في إبقـــاء الباب مفتوحًا أمام التعاون مع بلدانه سيســـمح لها بأن تحافظ على شخصيتها وخصوصيتها، وتستفيد في الوقت نفسه من الإنجازات الحضارية للشعوب الأخرى.

وفي **روسيا** الحديثة يمكن أن تنصهر مختلف المنجزات الحضارية في العالم، فالعالم الإسلامي في حاجـــة إلى **روســـيا** مثلما هـــي في حاجة إليه. كما أن **روســـيا** في حاجـــة إلى كل من **الولايات المتحدة الأمريكية والصين**، كما أنهما في حاجة إلى **روســـيا**، وكم أود أن أنهي كتابي بشـــيء من التفاؤل ولكن هيهات، فهناك عدد من الإشـــارات التي تبعث على القلق والتي تؤكد أنه لا روسيا ولا جيرانها ولا شركاؤهما سواء الأكثر منها تقدماً أو الأقل بمنجى من إجتياز محن عصيبة، فهناك الكثير من الإشارات التي تبعث على القلق التي تؤكد أنه لا **روسيا** ولا جيرانها ولا شركاؤها سواء الأكثر منها تقدمًا أو الأقل بمنجى عن اجتياز محن عصيبة.